

محاور البحث:

- ما الإنسان؟
- الإنسان.. والإسلام.
- الروح أم الجسد.
- الروح والرسالة.
- الجسد والجاهلية.
- الاحتلال وفقدان الثروات.
- الجهال.. ومشكلات الأمة.
- لغة الخطاب المادي.
- الأمة في الأسر.
- دعوة الرسل.
- الفقر والكفر.
- سيكولوجيا الناس.
- كيف يحل الإسلام المشكلات المادية؟
- مكونات الأمة.
- قاعدة عامة.. ونقطة الانطلاق.
- مكمن الخطورة في الفكر المادي.



15 شعبان 1435 هـ - 13 / 06 / 2014 م

www.ommaty1401.blogspot.com

ما الإنسان؟

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: 12] ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[الحجر: 29]

الإنسان: قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.. مخلوق متفرّد عن باقي المخلوقات، وهو خليفة الله في الأرض، وهو أعلى منزلة من الملائكة إذا أعلى جانب الروح؛ وقام بأمر الله سبحانه. وهو أضل من الأنعام إذا أعلى جانب الطين "الجسد" واتبع هواه.

هذا هو التفسير الوحيد عن الإنسان، وهذا هو التصور الإسلامي الصحيح، والحق المطلق استناداً لما جاء في القرآن الكريم بتعريفه عن "الإنسان".

لعل البعض يتساءل.. هذا كلام بديهي ومعروف، فلمَ هذه المقدمة، أو هذا التأكيد عليه؟

الحقيقة هذا الكلام البديهي والمفهوم لدى المسلم.. لا يُترجم في واقع الحياة، بل إن شباب المسلمين منذ نعومة أظفارهم تضرب النظم التعليمية والتربوية وفلسفتها بهذه الحقيقة عرض الحائط، وتقدم مفهوماً آخر للإنسان من خلال الفلسفة وعلم الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا والأحياء.. فالإنسان عبارة عن "حيوان جنسي" كما قال فرويد، أو "عبد للمادة" كما قال ماركس، أو "فرد في قطيع" كما قال دوركايم، أو مجرد "خلية تطورت" كما قال داروين !! أو مجموع ذلك !

وتمر هذه التصورات مرور الكرام على شباب المسلمين سواء في المدارس أو الجامعات دون إدراك لمدى الخلل الاعتقادي الذي يصيبهم، وينعكس فيما بعد على تفكيرهم وسلوكهم وأخلاقهم، فهذا الخلل في الجذور يفسدها، ويخرج عما قريب ثماره الخبيثة.

والتفسير الإسلامي عن الإنسان، ومن ثم الحياة.. ومن قبل تصوره عن حقيقة الألوهية هي: الأصول التي ينبني عليها حركة الإسلام في الحياة، وكيف يعمل؟ وكيف يُنشأ منهجه ونظم حكمه؟.. وكيف يكون منهج التفكير الإسلامي المستند للقواعد الصحيحة في تفسير الوجود؟

وهذه نقطة مفصلية بين الإسلام والعلمانية، فما قرره الإسلام عن تفسيره للإنسان فالمسلم مؤمن به، وعلى أساسه يعمل، وأما تصور العلمانية عن الإنسان فالمسلم كافر به، ويقتلع من بيئته ومؤسساته ونظم حكمه أي لوثه من العلمانية.

❊ ❊ ❊

ومن هذا التصور الصحيح عن الإنسان.. جاء الإسلام ليلبي حاجات الإنسان الروحية والمادية معاً.. بلا انفصال، وبلا تضاد، وبلا تناقض: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : 14] ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 54]

فلم يعمل الإسلام على كبت حاجات الإنسان المادية في مقابل الروحية أو العكس.. بل إنه أصلاً لم يفصل بينهما، ونحن – هنا – نفرق بينها للفهم والدراسة. بل جعل الإنسان وهو يمارس شهوة من أشد شهوات الإنسان وهي: الجنس.. جعلها صدقة وعبادة: "**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**" [السنن الكبرى للبيهقي/7226]

وهذا هو التوازن الفريد الذي يتميز به الإسلام عن كل مناهج الأرض الوضعية، فالمناهج الوضعية لا تعرف هذا التوازن مطلقاً فهي إما تجنح إلى الرهبانية – وهذه قلة – فتقتل كيان الإنسان، وتكبت طاقاته.. فيختل توازنه حتى يصاب بالجنون في بعض الأحيان، وإما تجنح به إلى المادة – وهذا حال أغلب البشرية – فتقتل روح الإنسان، وتحوله إلى آلة لتضاعف الإنتاج، وتمارس الاستهلاك، وتعيش فقط من أجل المتاع الفردي المحدود.. وهذا – لا شك – صورة من أفسد صور الحياة البشرية.

أما الإسلام فيربط الإنسان – الذرة المحدودة التائهة في هذا الوجود الكبير – بخالقه، وبالوجود من حوله، ويجعله خليفة الله في الأرض، وكل ما في السموات والأرض مسخر له: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : 13]

فيطلق الإسلام طاقات الإنسان في الاتجاه الصحيح، ويُخرجه من حدود ذاته وشهوته إلى الوجود من حوله.. ويدفع به إلى السير في الأرض، وعمارتها، ويحمله الأمانة التي عجزت السموات والأرض عن حملها: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ويجعل الإنسان لا يعيش لذاته فحسب.. بل يعيش من أجل رسالته وأمته ومن أجل تحرير البشرية من آصارها وأغلالها.. فيصنع "الإنسان الرسالي" الذي يكون هو الثمرة المطلوبة من منهج الإسلام وأسلوبه التربوي.

* * *

الروح أم الجسد؟

الإسلام يوازن بين حاجات الروح وحاجات الجسد، ولكن - في نفس الوقت - يقرر أن الإنسان صار خليفة الله في أرضه، ونال هذا التفرّد العجيب إنما هو: بـ "نفخة الروح" وهي التي يصيبر الإنسان به إنساناً، وبها استحق هذا التكريم الإلهي العظيم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: 70]

لذا فإن التربية الروحية، وإعلاء جانب الروح في الإنسان يعني - ببساطة - أنها تُخرج الإنسان من محدودية وثقل الجسد إلى سعة وخفة ورفرفة "عالم الروح".

والإسلام يريد أن تظل الروح هي القائد المسيطر على الإنسان، ويدفع بها أن تصعد بكل كيان الإنسان إلى السماء بينما هي مازالت تدب على الأرض.. ومن هنا ينشأ التوازن بين "رفرفة الروح" بالإنسان نحو السماء، وبين "ثقلة الجسد" ورغبته في الخلود إلى الأرض، والحقيقة لا يمكن أن نسمي هذا صراعاً بين الروح والجسد.. فالروح تريد تلبية رغباتها بالتوجه نحو موطنها الأصلي وهو: السماء ! بينما الجسد يريد أن يُلبي تكوينه الطيني بالخلود إلى الأرض !

وما يريده الإسلام ليس هو انتصار الروح على الجسد، وإنما ممارسة الجسد حاجته بطريقة الروح، لا بطريقة الحيوان! لأنه لم يُخلق ليكون حيواناً.. وإن الذين يمارسون حاجة الجسد بطريقة الحيوان، وصمهم القرآن الكريم بهذا الوصف: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: 12]

ولأن الإنسان صار إنساناً بـ "نفخة الروح" جعل الإسلام الأولوية الأولى لـ "غذاء الروح"؛ لأنه هو الذي يحقق الرضى للإنسان.. وكان هذا الغذاء هو التسبيح: ﴿ وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه: 130]

والروح والقلب والمكونات الغيبية من الإنسان هي مستقبلات الإيمان، ومحل الإسلام، وموطن الأخلاق، والمشاعر: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46] ولذا يجب أن تكون هي القائد، وهي الموجه لحركة الإنسان كلها على الأرض.. وفي هذا المجال تأتي كل مفردات التربية الإسلامية والإيمانية، وعندما لا تكون الروح بإيمانها وأخلاقها هي الموجه؛ ينهار الكيان الإنساني كله، وينزل الإنسان إلى أسفل سافلين: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾[التين : 5] بل ويتحول إلى صورة ممسوخة مشوهة ممقوتة.. خرجت بالإنسان عن "الطور الإنساني" ليكون في صورة ليست هي بالإنسان ولا بالحيوان.. بل أضل: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ ﴾ [الأعراف : 176]

وتبدو هنا خطورة هذا الأمر، وأنه ليس مجرد تربية أو مجرد مكارم الأخلاق، بل هو تحقيق أو لا تحقيق لإنسانية الإنسان! وإتمام أو لا إتمام لمعنى خلافته ووجوده على الأرض.

* * *

الروح والرسالة

الرسالة جاءت لتعرف الإنسان طريقه المستقيم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وجاءت لتعلمه كيف يختار في هذه الحياة، وكيف يمارس هذه الحياة.. فجاءت بأهدافها الروحية والمادية على قدر الفطرة السوية: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14] ولكي تقوم هذه الرسالة في الأرض لا بد من تضحيات ودعوة وجهاد، ومواجهة بين الحق والباطل، وتدافع بين أهل الحق، وبين أهل الباطل.. في سنة ثابتة دائمة ليوم القيامة: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: 23]

هذه التضحيات بالنسبة للإنسان ليست بالأمر اليسير، فالجسد يريد أن يخلد ويلتصق بالأرض.. وينفر من سماع كلمة "التضحيات"، فيأتي هنا دور الروح – التي هي غيب، وتؤمن بالغيب – لترفع الإنسان من ثقلة الطين، وتأكد له أنه سيحصل على العطاء الجزيل أضعافاً مضاعفة.. في فرحة وحبور وسرور لا ينقطع في الآخرة، ولهذا جاء القرآن الكريم.. وهو يتحدث عن الحياة الآخرة يدخل على الإنسان من كل طريق، ويأخذ النفس من كل أقطارها للتطلع إلى نعيم الآخرة، والحذر كذلك من عذابها.. في توازن عجيب بين (الرجاء والخوف) وأن كل ما على الإنسان أن يؤديه هو: أن يقوم بمقتضيات الرسالة بكل تضحياتها وتكاليفها، دون اعتبار لنجاح حركته أو رؤية ثمرته! فهو عمل من أجل الله جَلَّجَلَالُهُ.. يجب أن يكون خالصاً لله من كل حظوظ النفس سواء مادية أو معنوية، وأنه مُبلغ كامل الرسالة عن ربه، أما موعد النصر والتمكين فهذا علمه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويخضع لسنن الله في المجتمعات والنفوس والدول: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ [الأحزاب: 39]

ولن يستطيع الإنسان أن يحمل الرسالة إلا عندما يتحرر من ثقلة الجسد، ولعنا نلحظ أن كل العبادات إنما جاءت لإزكاء هذا الجانب:

فجاءت **الصلاة**: ليظل الإنسان في حالة من الاتصال الدائم مع الله، لا تنقطع على مدار اليوم. ولعلنا نلحظ مدى التشديد على جانب الصلاة، ومدى العناية بها، ونلحظ كذلك حال من يدعي الإسلام، ولا يقوم بأمر الصلاة.. فيكون لما سواها أضيع !

وجاء **الصيام**: ليتخفف الإنسان من حاجته.. ولا يكون عبداً له، فيكون الصيام تحريراً لروح الإنسان. ونرى هنا مدى العبث الذي نجده في شهر الصيام بتحوله إلى مهرجان للأكل والأطعمة.

وجاءت **الزكاة**: لتخفف عن الإنسان حبه للمال: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ [الفجر : 20] والتصاقه به، بل جعلها الإسلام "تطهيراً" للنفس، وإزكاءً للأخلاق: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة : 103] ولعلنا نرى مدى العبث عندما يخرج الناس زكاتهم أو صدقاتهم رئاء الناس، أو يمتنعون عن "تطهير" أنفسهم فيصبحوا في دنس لا يرفعه إلا "التطهر"؛ بالإنفاق في سبيل الله.

وجاء **الحج والعمرة**: ليهاجر الإنسان إلى الله وحده، ويخلع عن نفسه الدنيا، بل يخلع حتى عنه ثيابه، ويلبس قطعة صغيرة ليس بها مظاهر زينة أو عجب، ليستشعر الخلق كلهم أنهم أمام إله واحد.. كلهم سواسية لا ينظر الله جَلَّجَلَالُهُ إلا إلى قلوبهم.. وما فيها من عبادة وإخلاص، ولعلنا نرى مدى العبث في تحول الحج إلى مظاهر: تفاخر، وأكل، وراحة، وتقسيم للناس حسب أموالهم !

ويأتي **الجهاد**: ليكون هو "ذروة السنام كلها في الإسلام"، وأعلى مكانة ودرجة فيه.. ذلك أن الإنسان يخلع عن نفسه كل ثقلة الجسد، وتبقى الروح وحدها هي المحرك، وهي التي تقدم الجسد كله قرباناً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفداءً من أجل إعلاء كلمته، وحمل رسالته، فيعوضها الله.. بالحياة التي لا تنقطع و: ﴿ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : 60] ولعلنا نرى هنا العبث عندما يختلف المجاهدون على متاع الدنيا أو على سلطان أو رياسة فيضيع حظهم ونصيبهم من الجهاد !!

وفي جانب **التشريعات والحكم**:

جاء الإسلام ليُنشأ الرقابة الذاتية على الإنسان أولاً، قبل أن يضع التشريعات المنظمة لحياته، وجعل خوفه أولاً من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الغاية المطلوبة.. وفي كل تشريع – وكل تشريع إلهي عبادة – إنما يخاطب تقوى الإنسان وخشيته من الله بالأساس، وليس مجرد إنفاذ حكم.

ولذا كان الحق والعدل الرباني هو أساس كل تشريع.. فأمر الإسلام بالعدل حتى مع العدو المحارب: ﴿ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[المائدة: 8] فالتشريع وهو يضبط حركة الحياة، ومؤسسات الحكم والدولة.. يخاطب روح الإنسان أولاً بأن القضية بالأساس قضية "تقوى وخشية" من الله جَلَّجَلَالُهُ، ويكون الوجل من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مقدم على الخوف من سلطان التشريع المادي.. هذه هي النقطة التي يريد الإسلام أن يصل إليها الإنسان.

❋ ❋ ❋

الجسد والجاهلية

الجاهلية هي كل انحراف عن الرسالة، وتمام الجاهلية هو: "نبذ الرسالة، واتباع الهوى" ! وفي هذه الحالة تكون "الروح" انحسرت داخل سجن "الجسد" وأصبحت طوع أمره ! وتتحول بطاقاتها وقدراتها إلى مجرد خدام لحاجات الجسد !

وكل المناهج الجاهلية التي تلغي روح الإنسان – باعتباره غيب لا يليق بالبحث العلمي ! – كل هذه المناهج تنزع عن الإنسان إنسانيته لتحوله كما عرّفت الإنسان نصاً بأنه: "حيوان، أو أدنى من الحيوان".. لكنه تطور !!

هذه المناهج لا تبقى في طور الفلسفة ولا قابعة بين دفتي الكتب.. بل تتحول بعقائدها الجاهلية هذه إلى منهج حياة، يذيق البشرية الويلات: ويتحول المنهج الرباني والرسالة من: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] إلى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم: 41]

منهج الحياة هذا يتحول إلى حروب وويلات تذيق البشرية صنوف العذاب، وتحول الإنسان إلى مجرد حيوان يعيش من أجل: تحصيل المادة، وممارسة الجنس، وتناول الطعام.. ويتحول إلى وحش لا يشبع من هذه الرغبات، ويتحول إلى قوة مدمرة في حال اختلال الحصول على هذه الحاجات، ويتحول إلى "سارق" وناهب للآخرين ليؤمن حاجاته تحت أي مسمى: "احتلال – استعمار – تنوير – إمبريالية.– تحرير – ديمقراطية.. إلخ".

وتتحول مناهج التربية والتعليم لأن يكون الإنسان مجرد عبد لحاجته وخداماً لجسده، وفي سبيل الحصول عليها يسحق كل القيم الأخلاقية، والمبادئ الإنسانية.. ثم تكون في النهاية: العبودية الخالصة للجسد !

* * *

الاحتلال وفقدان الثروات

تشريعات الإسلام المالية والاقتصادية تضبط مسألة عدالة التوزيع، والعدالة الاجتماعية الإسلامية، فلا عوز ولا فقر، ولا مظاهر بذخ وترف واحتكار.. صورة متوازنة لا نجدها إلا في الإسلام!

في الجاهلية التي تعبد الجسد، وتقدس المادة.. يكون مدارها حول أمرين: إما "البذخ والاسراف" حتى الجنون، وإما "العوز والفقر والهلاك". والمحتل الصليبي يريد أن يضمن لغربه كل مظاهر الترف، والرفاهية، والاحتكار، وتكدس الثروات، والذهب، والأموال.. وجعل كافة مقدرات البشرية بين يديه، من خلال مؤسسات يُنشأها؛ ليسرق بها ثروات الشعوب كـ "البنك الدولي وصندوق النقد"... إلخ.

وأما البلدان التي يحتلها سواء بصورة مباشرة أو عن طريق وكلاء: فإنه يشفط كافة ثرواتها، ويجعلها ملك يديه، بل ويحدد مجالات الإنفاق، وطريقة السفه والإسراف ! وهذه دوماً ما تكون بلادنا المسلمة - العدو اللدود للمحتل اللصليبي - فتظل بلادنا تعاني من "الفقر والبطالة" من جانب، ويغرق أدوات المحتل واتباعه في "البذخ والاسراف"، بعدما سرقوا ثروات الشعوب ودمائهم.

وتظل الشعوب في حالة من المعاناة تبحث عن مخلص لها من حالتها تلك، ولا تدري أين الطريق؟

* * *

الجهال ومشكلات الأمة

يأتي جهلة يتخذون من الإسلام شعاراً.. يحاولون معالجة قضايا الأمة من خلال الوعود البراقة، والقدرة على إنجاح مطالب أمة واقعة تحت الاحتلال أو بمعنى أدق "الحكم الجبري" وتُدار كل ثرواتها بإدارة المحتل الصليبي. وتفرض عليها المؤسسات الدولية كل صغيرة وكبيرة في اقتصادها، وفي أسلوب حياتها، وفي طرق إنفاقها !!

يأتي هؤلاء - وعسى هم صادقون - يعدون الأمة أنه بمجرد انتخابهم أو دعم الأمة لهم؛ ستُحل جميع مشكلاتها، وهم أفضل من اتباع المحتل.

فتثق الأمة فيهم، وتعطيهم فرصتهم علهم يستطيعون، وما أن يصلوا إلى مركز الحكم - عندما يسمح الصليبي بذلك ليطعن في رسالتهم - حتى يفشلوا أو يُفّشلوهم فشلاً ذريعاً.

وهؤلاء يخاطبون الأمة من "ظواهر" معاناتها من مشكلات كـ "الفقر - البطالة - الفساد - العنوسة - المرض - الجهل... إلخ" دون الحديث عن "جذور المشكلات"!! وأنه لا حل إلا من خلال "اقتلاع الجذور الخبيثة" التي تُخرج هذه "الثمار الخبيثة".. وهذا الحل يحتاج إلى "تضحيات كثيرة وصبر طويل" وهذا لم تترب الأمة عليه، ولم تُخاطب به ! وبالتالي: لن تطيق سماعه.. ولن تصبر عليه، وهي تريد حلاً سريعاً لهذه المعاناة الدائمة والمستمرة..

ينجر إلى هذا الفخ "المصلحون والطيبون" لمحاولة معالجة "ظواهر" المشكلات.. فيجدون أنفسهم جميعاً هم والأمة واقعون في الأسر وفي سجن شديد الحراسة، وتحت حصار المحتل!!

إذن، الفشل هو المحصلة النهائية.

❋ ❋ ❋

لغة الخطاب المادي

عندما يتخذ البعض الإسلام شعاراً، ويتوجه إلى الناس بـ "الخطاب المادي" الذي يَعد الناس برغد العيش، وحل جميع مشكلاتهم، دون أن تتحرر الأمة ابتداء من المحتل، وتكسر أسوار السجن العتيق ! فإنهم سيعجزون عن حل هذه المشكلات أو حتى التخفيف من حدة ظواهرها !

ولكن هذه ليست المشكلة وحدها، المشكلة أن الأمة سترى أنه من البديهي والطبيعي عندما يلوح لها أحد بـ "خطاب مادي" علماني أو غيره.. ويؤكد على قدرته على تلبية "الخطاب المادي" أكثر من هؤلاء الذين اتخذوا الإسلام شعاراً؛ فإن الأمة ستتجه لهم، وستعطيهم تأييدها، وتثق فيهم مهما كانوا يحملون من علمانية !

ذلك أنه – ببساطة – كانت لغة الصراع "مادية" ومن يحقق أكثر منها، هو الفائز.. ولا يجوز – عندها – أن ينادي صاحب "شعار الإسلام" الأمة عند الهزيمة: أن هلمي إلى دينك، فإن هؤلاء العلمانيون أصحاب "الخطاب المادي" يريدون هدم دينك واستلاب هويتك.. عندها الأمة لا تثق في لغة هذا الخطاب "الديني" المفاجئ.. لقد دار الصراع على "مصالح مادية" تحصل الأمة بمواجبها على بعض حقوقها المادية، ويحصل القائمون على إدارة الصراع نصيباً من السلطة والحكم، فلماذا ظهر الآن خطاب "الدين والهوية"؟!

وهنا تقع الإشكالية الكبرى.. إن العلمانيون حقاً يريدون هدم هذا الدين، واستلاب هوية المسلمين، وهم أدوات للمحتل.. وقادرون على تخفيف بعض مظاهر ووطأة المشكلات بعد أخذ الإذن من المحتل، ولكن الأمة غائبة عن هذه الحقيقة، وتغرق في حالة من "الفردية الشديدة" والفرد لا يرى إلا مشكلاته الآنية: (فقره – بطالته – أولاده) ويمده يده لأي منقذ – حتى ولو كانت يد الشيطان في بعض الأحيان – لينقذه من معاناته وعذاباته.

ومن يرفعون شعار الإسلام لم يقولوا للمسلمين هذه المعاني.. بل وجدتهم الأمة يتحالفون مع "العلماني"!! الأمر الذي فهمته الأمة - بكل وضوح - أنه "صراع سياسي مادي" وهي لا تريد أن تدخل أو تكون طرفاً في هذا الصراع.. إنها تريد حلاً عاجلاً لمعانة وعذاب مستمرين !

❊ ❊ ❊

الأمة في الأسر

لماذا لا تستطيع الأمة حل مشكلاتها إلا بإذن المحتل، وبما يسمح به؟

(1) لأن الأمة واقعة تحت احتلال مباشر منذ الحرب العالمية الثانية، إما باحتلال عسكري مباشر عن طريق القواعد العسكرية، والسيطرة الأرضية والجوية والبحرية. أو الاحتلال عن طريق خلفاء المحتل وأدواته وعملائه.

(2) النظام الاقتصادي الدولي يتحكم في كل البشرية، ويُدار بأمر المحتل الصليبي من خلال المؤسسات المالية الدولية.. ولا حل إلا بالفكاك والتحرر من هذا الأسر.

(3) المحتل يراقب الأمة من خلال أجهزته الاستخبارية والأمنية، ويقطع عليها أي نهضة حتى ولو كانت علمانية !

(4) المحتل يُحرم على الأمة أمرين: (أ) السيادة والاستقلال، (ب) تحكيم الشريعة، وإقامة الدين.

(5) المحتل يتحكم في كل مقدرات الأمة وثرواتها، وهو الذي يسرقها، ويديرها، ويوزع الربح على وكلائه وعملائه.

(6) المحتل حريص على عدم قيام أي قاعدة أو نهضة علمية وصناعية وتقنية.. ويريد للشعوب أن تظل في حالة من "استهلاك" انتاجه باستمرار.

(7) المحتل لا يسمح أن تُحل أو حتى تخفف أي مشكلة من مشكلات الأمة باسم الإسلام، أو من يحملون شعار الإسلام.. ولا يريد أن يُنسب لهم إلا "الفشل، ومحدودية الرؤية، والدروشة".. وأي حل أو تخفيف لمشكلة لابد وأن يكون باسم "العلمانية".

***

دعوة الرسل

كيف كانت دعوة النبي ﷺ؟

"بدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن يمضي في دعوته يعرّف الناس بربهم الحق، ويعبدهم له دون سواه.

ولم تكن هذه – في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب – هي أيسر السبل إلى قلوب العرب! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: «إله» ومعنى: «لا إله إلا الله».. كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا.. وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله – سبحانه – بها، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله إلى الله.. السلطان على الضمائر، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة.. السلطان في المال، والسلطان في القضاء، والسلطان في الأرواح والأبدان..

كانوا يعلمون أن : «لا إله إلا الله» ثورة على السلطان الأرضي، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله.. ولم يكن يغيب عن العرب – وهم يعرفون لغتهم جيداً، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: «لا إله إلا الله» – ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم .. ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة – أو هذه الثورة – ذلك الاستقبال العنيف، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام..

فلمَ كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء؟

لقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الدين، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب إنما هي في يد غيرهم من الأجناس! بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم، يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان. وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس.. وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحاري القاحلة، التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك!

وكان في استطاعة محمد ﷺ وهو الصادق الأمين الذي حكمه أشراف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود، وارتضوا حكمه، منذ خمسة عشر عاماً والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسباً.. كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب، التي أكلتها الثارات ، ومزقتها النزاعات، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة الرومان في الشمال والفرس في الجنوب وإعلاء راية العربية والعروبة وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة..

ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة – على الأرجح – بدلاً من أن يعاني ثلاثة عشر عاماً في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة!

وربما قيل: إن محمداً ﷺ كان خليقاً بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة؛ وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه.. أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه!

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم، لم يوجه رسوله ﷺ هذا التوجيه! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله: وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء!

لماذا؟ إن الله – سبحانه – لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه .. إنما هو – سبحانه – يعلم أن ليس هذا هو الطريق .. ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي.. إلى يد طاغوت عربي.. فالطاغوت كله طاغوت!.. إن الأرض لله، ويجب أن تخلص لله. ولا تخلص لله إلّا أن ترتفع عليها راية: «لا إله إلا الله».. وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو طاغوت فارسي.. إلى طاغوت عربي.. فالطاغوت كله طاغوت! إن الناس عبيد لله وحده، ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية : «لا إله إلا الله» .. «لا إله إلا الله» كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله.. ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله.

وهذا هو الطريق ..

وبعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعاً للثروة والعدالة.. قلة قليلة تملك المال والتجارة؛ وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها وما لها. وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع.. والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة؛ وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا!

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يرفعها راية اجتماعية؛ وأن يثيرها حرباً على طبقة الأشراف؛ وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء!

ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة، لانقسم المجتمع العربي صفين: الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة ، في وجه طغيان المال والشرف. بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه : «لا إله إلا الله» التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفذاذ من الناس.

وربما قيل : إن محمداً ﷺ كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة؛ وتوليه قيادها؛ فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها .. أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه!

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم ، لم يوجهه هذا التوجيه ..

لقد كان الله – سبحانه – يعلم أن هذا ليس هو الطريق .. كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل؛ يرد الأمر كله لله؛ ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع، ومن تكافل بين الجميع؛ ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله؛ ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء. فلا تمتلئ قلوب بالطمع ، ولا تمتلئ قلوب بالحقد؛ ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا؛ وبالتخويف والإرهاب! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح؛ كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير: «لا إله إلا الله»..

وبعث رسول الله ﷺ والمستوي الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى – إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية.

وكان التظالم، والخمر والميسر، والدعارة – في صور شتى – من معالم هذا المجتمع.

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يعلنها دعوة إصلاحية، تتناول تقويم الأخلاق، وتطهير المجتمع، وتزكية النفوس، وتعديل القيم والموازين..

وكان واجداً وقتها – كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة – نفوساً طيبة ، يؤذيها هذا الدنس؛ وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير ..

وربما قال قائل: إنه لو صنع رسول الله ﷺ ذلك فاستجابت له – في أول الأمر – جمهرة صالحة؛ تتطهر أخلاقها، وتزكو أرواحها، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها.. بدلاً من أن تثير دعوة أن "لا إله إلا الله" المعارضة القوية منذ أول الطريق!

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ إلى مثل هذا الطريق ..

لقد كان الله – سبحانه – يعلم أن ليس هذا هو الطريق! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم؛ كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين. وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة؛ وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك؛ بلا ضابط، وبلا سلطان، وبلا جزاء!

فلما تقررت العقيدة – بعد الجهد الشاق – وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة.. لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده.. لما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء .. لما تقررت في القلوب: «لا إله إلا الله» .. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون.

تطهرت الأرض من الرومان والفرس.. لا ليتقرر فيها سلطان العرب.. ولكن ليتقرر فيها سلطان الله.. لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانياً وفارسياً وعربياً على السواء.

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده؛ ويسميها "راية الإسلام"، لا يقرن إليها اسما آخر؛ ويكتب عليها: «لا إله إلا الله»!

وتطهرت النفوس والأخلاق ، وزكت القلوب والأرواح؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله – إلا في الندرة النادرة – لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر؛ ولأن الطمع في رضى الله وثوابه ، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات ..

وارتفعت البشرية في نظامها ، وفي أخلاقها ، وفي حياتها كلها ، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام ..

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام؛ كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعداً واحداً، لا يدخل فيه الغلب والسلطان.. ولا حتى لهذا الدين على أيديهم .. وعداً واحداً لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا.. وعداً واحداً هو "الجنة".. هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني، والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان، في كل زمان وفي كل مكان، وهو: «لا إله إلا الله»!

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض – كائناً ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم – ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض. ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت..

لما أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا – إذن – أمناء على هذه الأمانة الكبرى. أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال.. وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لا لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم؛ إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله ، هو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوي الرفيع، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها.. راية لا إله إلا الله.. ولا ترفع معها سواها.. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره المبارك الميسر في حقيقته.

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية.. أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: «لا إله إلا الله»..

ذلك شأن تصدي القرآن المكي كله لتقرير: «لا إله إلا الله» في القلوب والعقول، واختيار هذا الطريق – على مشقته في الظاهر – وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى، والإصرار على هذا الطريق.." [مقدمة سورة الأنعام – في ظلال القرآن]

* * *

الفقر والكفر

هذا ما تحمله العلمانية للأمة ! وهذا بالفعل ما حققته.. فالعلمانية العربية الخائنة لله ورسوله وللأمة لا تقدم للناس إلا الكفر.. وعبادة الهوى والدنيا. ثم لا يجد الناس حتى هذه الدنيا التي آمنوا بها! بل وجدوا الفقر والهزيمة والذل والاستبداد والخنوع.. ولا يخجل العلمانيون من هزيمة، ولا كارثة! بل يعيدون إنتاج خطابهم – من جديد – في صور مختلفة؛ وإنهم في النهاية "جنود المحتل" ولا يملكون أي اختيار سوى المشاركة في نهب ثروات الأمة.

وهذا ليس بسبب مكر العدو، وقوة العلمانية.. بل بسبب أمرضنا نحن، ومن عند أنفسنا نحن.. عندما اعتبرنا أن الخطاب الذي يجب أن يوجه إلى الأمة هو "خطاب الوعود والأماني المادية" وعندما آمنت الأمة به.. ولم تسمع غير هذا الخطاب ! وجهلت رسالة ربها: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 96]

ويكفي أن نستدل بمثال صغير جداً – أمام الكوارث الأخرى – وهو: أن مصر خسرت في صفقة الغاز الذي باعته لليهود حوالي (11) مليار دولار – غير الديون – برعاية الصليب، فخسرنا الثروة، وخسرنا ولاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقبول ولاية العلمانية وولاية اليهود والصليبين !

ثم تحقق مصر – وهي أغنى البلاد وأخصبها وأجملها – المركز الثالث عالمياً في التعاسة، والمركز الثالث إقليمياً في الإدمان. !!

* * *

الناس في هذه الأمة – عموماً.. وفي مصر خصوصاً – أخلاط شتى، لما مثله العبث الفكري والتنوع العلماني بها عامل شتات في الروح والفكر.. ودراسة "نفسية" الناس في بلادنا – خاصة مصر – ليست بالأمر اليسير، وهي تتطلب دقة بالغة في تحديد نفسية الناس العامة، وكيفية التأثير فيها، ومتابعة لكل ما يعتريها من أفكار، ومدى تأثرها بلوثة العلمانية ! ومدى درجة إصابتها بالأمراض الجاهلية، وأمراض الاستبداد.

ولكن يبقى كل الناس تبحث عن "الأمن – الاستقرار – الطمأنينة" وهي حاجات إنسانية مشروعة، و"الاستقرار" في الأرض هدف يسعى إليه الإنسان: ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: 36] ولكنه ليس هو "محور" العمل والحياة.. إنه حاجة إنسانية نعم، لكن يجب أن لا يكون هو ما يعيش الإنسان لأجله، فالله – سبحانه – قال: ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ فمحور الحياة هو حول الرسالة، وإقامة الدين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]

وليس كل الناس يفهم ذلك، فتأخذهم خضرة الدنيا ومتاعها ! فيتطلعون إليها.. لكنهم يسلكون الطرق الخاطئة إليها، فإن ما عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من خير وبركة وطمأنينة لا ينال إلا بطاعته، ولا تنال طاعة الله.. إلا بإقامة دينه، وتحكيم شريعته، وإعلاء كلمته..

والمسلمون يعملون من خلال "الاستراتيجية" التي حددها الإسلام لهم، أو بالمعنى اللغوي الدقيق البديل عن "الاستراتيجية" وهو: الصراط المستقيم! وهذا الصراط المستقيم له معالم ثابتة لا تتغير وهي:

(1) أن أول عمل له هو دعوة الناس إلى توحيد الله وحده بلا شريك، وضمان الرزق الذي هو خير وأبقى: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131] وهو: "الجنة"، وضمانها إنما هو بتوحيد الله وحده ونبذ كل شرائع سواه، والكفر بالطاغوت وبالعلمانية.. وبكل مناهج من صنع أهواء البشر.

(2) أن العمل الثاني يكمن في تكوين القاعدة الصلبة؛ نواة الدعوة والسياسة الشرعية والجهاد، الذين سيكونون الرواد لحمل الرسالة.. يليهم الكتلة الحرجة، والتيار العام. والتحرك بهذا الدين لاستئصال "الطاغوت والعلمانية" أصل الشر والكفر والفقر والفساد.

(3) توفير حاجات الناس، والرأفة بهم ورحمتهم والإشفاق عليهم، وبذل كل سبل التكافل والرعاية الاجتماعية، ورفع كرامة الناس، وتحرير إنسانيهم.

فالخطاب الإسلامي يختلف عن الخطاب العلماني في رعاية حاجات الناس المادية:

أولاً: الإسلام لا يدخل ابتداء مع العلمانية في صراع على مدى القدرة على تلبية حاجات الناس، ومن ينجح في تحقيق "المزيد" منها يكون هو المنتصر. الإسلام لا يعترف بشرعية وجود العلمانية ابتداء، بل هدفه الأول القضاء عليها تماماً في الفكر والتصور، وفي الحكم ونظم الحياة.

وسواء استطاع المسلمون تحقيق حاجات الناس أو فشلوا، فهدف الإسلام لن يتغير أبداً، وهو الكفر بالطاغوت، وبالعلمانية وهدمها كلها.. بل والقتال من أجل ذلك: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76]

ثانياً: خطاب الإسلام تجاه حاجة الناس، ليس هو خطاب مادي، بل هو خطاب إسلامي بمكوناته الروحية والمادية.. وجعل الرزق الذي يحمل الخير والبركة والطمأنية لا بد وأن يكون مرتبطاً بتقوى الله وطاعته، أما الرزق الذي منحه الله للكافر: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : 20] فليس هو ما يريده الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للمسلم، إنما يريد العطاء والرزق مع الرضى.. لا الاستدراج!

ثالثاً: الإسلام في خطابه لحاجات الناس، يعمل من خلال منظومة كاملة متكاملة في العقيدة والعبادة، وفي الزكاة، وفي الرعاية الاجتماعية، وفي العدالة الإسلامية، وفي التشريعات المالية والسياسية والاقتصادية ويشترط كامل الاشتراط أن يعمل كوحدة كلية بلا شريك من تصورات جاهلية أو علمانية.

رابعاً: إن الإسلام يعمل للآخرة الباقية قبل الدنيا الفانية.. ولا يغفل الدنيا وحاجاتها، ولكن لا يقدمها على الآخرة، ويضع للدنيا المنهج الذي إذا أقامه الناس - كما أمر الله - ﴿ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : 66]

وعندما ننحرف عن هذه "الاستراتيجية - الصراط المستقيم" فإننا نكون خسرنا المعركة ابتداء، ودخلنا مع العلمانية في صراع نحن انهزمنا فيه من قبل أن يبدأ.

***

كيف يحل الإسلام المشكلات المادية؟

(1) الإسلام يعمل أولاً على التحرر من الاحتلال الصليبي، سواء الاحتلال المباشر، أو الاحتلال عن طريق الوكلاء والعملاء والأدوات العلمانية.

(2) الإسلام يحشد كل طاقاته ويربي كل أبناءه للاستعداد والجهوزية لمعركة التحرير هذه، باسم الإسلام وحده ولا شيء سواه.

(3) الإسلام يسترد كل ثروات الأمة المنهوبة، ويصادر كل أموال الفساد ويردها إلى بيت مال المسلمين.. وإعادة توزيعها وفق محورين: (أ) محور مرحلي تخطيطي: ينقذ الناس من الفقر والعوز. (ب) محور مستقبلي لترسيخ التمكن من إنتاج كل حاجات المسلمين.

(4) إن الإسلام لا ينزلق إلى حل مشكلات العلمانية، ويبحث فيها، لأنه يرى أن العلمانية هي الجذور الخبيثة لكل المشكلات، وهو لا يحل المشكلات إلا عندما يعلو ولا يُعلى عليه.

(5) إنه يخاطب الناس أولاً، بإنقاذ أنفسهم بالتوحيد الخالص لله.. ويحمل رسالة هي أثقل من ملء الأرض ذهباً، ولا يكف عن هذه الدعوة سواء أكان في أشد حالات الاستضعاف أو أعلى درجات التمكين، وهو يجمع الناس على حمل الرسالة، وإقامة الدين.

(6) والإسلام يعلم أن هناك فئة من الناس سيظل همها المتاع، ولا شيء غيره.. وهذه فئة لا يعول عليها الإسلام كثيراً، فهي خالدة إلى الأرض.. وستخضع لكل منتصر في النهاية، فلا يرهق المسلمون أنفسهم بانتظار الاستجابة منهم، ولا يرهقون أنفسهم بطلب رضاهم.

(7) ثم يستدعي الإسلام تقوى القلوب، والرجاء فيما عند الله.. ليساهم كل المسلمون في معالجة واقعهم، ويستدعي كل تشريعاته السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والعسكرية ويجمعها في بناء واحد، ليواجه الواقع مهما كان به من مشكلات.

❋ ❋ ❋

مكونات الأمة من الناحية الاجتماعية

القاعدة الصلبة: وهم الرواد حملة الرسالة، والعلماء الممسكون بالكتاب، والقادة الربانيون، والشباب المغروس في قلبه بذور الرسالة.

الكتلة الحرجة: هي الكتلة المستجيبة للرواد والعلماء والقادة، وتمثل بحجمها وحركتها "كتلة حرجة" في التغيير عندما تصل إليها يحدث "التحول" الاجتماعي.

التيار العام: وهو التيار الذي يؤيد عاطفياً حملة الرسالة، ولا يُنشيء حركة، وإنما يستجيب للحركة، وينزل الساحة بعد بدأ المعركة، أو في أوسطها.

عموم المجتمع: هو خليط متنوع واسع، يستجيب بصورة كبيرة للتأثير الإعلامي، وأدوات التوجيه، وهو صعب الحركة، ضعيف الاستجابة، قد ينزل للمعركة في مرحلتها الأخيرة، ويشارك الأفراح والنصر، ويستجيب عندما يتم التمكين للرسالة.

الكتلة السلبية: وهي الكتلة التي تمكن منها المرض، وأقعدها التشوه النفسي.. عن الاستجابة لشيء، فتعطلت أجهزة الاستقبال لديها. ولا تُمثل برأيها أي تأثير يذكر؛ لأنها في الأساس سلبية.

* * *

قاعدة عامة، ونقطة الانطلاق

لن تُحل أي مشكلة لهذه الأمة - صغرت أم كبرت - بمعزل عن هذه العقيدة، وعودة الإسلام كاملاً إلى سدة الحكم، ونظم الحياة.

وكل أولئك الذين يحاولون بعيداً عن ذلك، فإنهم يغرقون في التيه! ولو ظلوا آلاف السنين.. فلن يصلوا إلى شيء !!

* * *

مكمن الخطورة في الفكر المادي:

(1) إعطاء شرعية وجود للعلمانية.. عندما نقبل أن تنافس الإسلام على حل مشكلات الناس، وتلبية مطالبهم.

(2) التباس مفهوم الإسلام على الناس عند مخاطبتهم بخطاب مادي دنيوي.

(3) الانزلاق لحل "ظواهر" مشكلات لن تحل أبداً في وجود المحتل، والعلمانية، وضياع الجهود والأموال والأعمار في محاولات "عبثية فاشلة".

(4) انصراف الناس على نصرة الإسلام، على اعتبار أن الصراع مجرد صراع "سياسي سلطوي".

(5) استمرار استنزاف ثروات الأمة، وازدياد تأزم المشكلات أكثر وأكثر.

(6) تعلق الناس بآمال واهية، وانتظارهم العبث.. الذي لن يفضي بهم إلا الهلاك.

(7) غياب مفردات الخطاب الإسلامي الصحيح، واستبداله بخطاب جاهلي: مادي تارة، وعلماني تارة، وخليط بين الإسلام والعلمانية تارة أخرى.

(8) تأخر تحرير الأمة من المحتل الصليبي، وفقدانها الطاقة الروحية اللازمة للمقاومة.. وقبولها بالأمر الواقع.

(9) استمرار مسلسل الفشل بمخاطبة الناس بالقدرة على حل المشكلات، دون أن يحكم الإسلام، ودون اقتلاع العلمانية من جذورها.

(10) امتهان الإسلام، وانتقاص الدين.. في استغلاله في "صراع سياسي" ليس لرسالة الإسلام منه نصيب.

(11) نشؤ الشخصية الذاتية الفردية، التي تنظر للدين والحياة.. من خلال ما يحقق مصالحتها الآنية الدنيوية.

(12) دخول العدو من "ثغرة" الوعود المادية، ومنح القدرة "الظاهرية" على حلها لمن يرضى عنه، ويخضع له، وينفذ أوامره.

(13) إدخال الإسلام في ساحة معارك غير ساحته، والادعاء بفشله في حل المشكلات، وانتهاء دوره في حياة الناس السياسية، وعليه أن يبقى في حدود المسجد، والشعائر، والاحتفالات، والمناسبات.

(14) غياب مفهوم الرسالة، ومعنى تحكيم الشريعة، وإقامة الدين، وإعلاء كلمة الله.. باعتبار أن المشكلة هي قضايا مادية حياتية.. وأن الإسلام بخير ولا يحتاج منا شيء !!

❋ ❋ ❋

روابط ذات صلة:

بحث: الإسلام.. العلمانية؛ ونمط الحياة.

بحث: الإسلام.. ومشكلات العلمانية.

بحث: خطورة الفكر العلماني على بعث الإسلام من جديد.

بحث: الأمة.. ما هي ؟

بحث: دعوة الرسل.